مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن زماننا كثير التعقيد كثير التحديات، كما أنه كثير الفرص والبدائل والمعطيات. وإن كثيرًا من الناس يعانون من كثرة الانشغال وغياب وَعْيهم عن كثير من القيم والمفهومات التي تشكل جوهر حياتهم. ويضحي النجاح في لفت انتباههم إليها عملاً قيمًا في حد ذاته؛ ولو كانت استجابة الناس محدودة.

وأعتقد أن علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد في سبيل إثارة اهتمام جماهير المسلمين نحو قضايا التربية والتعليم؛ بوصفها القضايا الأكثر فاعلية في تشكيل ملامح الأجيال الجديدة. ولن نستطيع أن ندرك مدى حاجتنا إلىٰ المدارس الجيدة إلا إذا تصورنا جيلاً من غير قراءة ولا كتابة، وآنذاك لن ترى سوى الأُميَّة وضيق الأفق والسذاجة والخرافة والبطالة وتدهور الشخصية وتفاهة الاهتمامات... وهذا يعني انهيارًا كاملاً للإنسان، وبالتالي للمجتمع. ولهذا فإن كَوْن أول كلمة يهبط بها جبريل -عليه السلام- على النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تحث على القراءة يُعَدُّ عميق الدلالة في هذا الشأن.

وحين نركِّز اليوم على ضرورة رفع سوية التعليم، وتحسين مستوى الدارسين في المدارس والجامعات؛ فإننا نأخذ بعيْن الاعتبار أننا نعيش في عالم مفتوح يمور بالتواصل والتأثر والتأثير المتبادل. وإن قيمة ما تقدمه مدارسنا ومعاهدنا من تربية وعلم وتدريب لن تكون مطلقة، وإنما بالقياس إلى ما تقدمه المؤسسات التعليمية لدى الدول الصناعية؛ لأن طبيعة العلاقة بين العالم الصناعي

والعالم النامي ـ أوجدت معادلة تقول: إن أي تفوق يحرزه أبناء الدول الصناعية الكبرى ـفي أي مجالـ سوف يدفع أبناء الشعوب النامية جزءًا من تكاليفه. كما أن أي تقدم يحرزه أبناء الشعوب النامية ـفي أي مجال من المجالاتـ سيؤدي إلى تحسين موقعهم في تبادل المنافع مع الشعوب المتقدمة، وسيدفع هؤلاء في مقابله شيئًا لهم... وهكذا.

ويمكن أن نستجلي أهمية الارتقاء بالتربية والتعليم من خلال المفردات الآتية:

١ـ إن فهم الإسلام والتفاعل مع مبادئه وأطره وآدابه؛ لا يتم في حقيقة الأمر من غير امتلاك درجة جيدة من الرقي الفكري والثقافي والشعوري؛ ذلك أن تحرير العقل من أغلال الوثنية والخرافة والجهل، والارتقاء باهتمامات الإنسان، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وقيادة الذات من خلال السيطرة على رغباتها، وتأسيس علاقات اجتماعية تقوم على الرحمة والتعاون والإنجاز المشترك... إن كل هذه الأمور من جملة ما يهدف الإسلام إلى جعله واقعًا حيًّا في حياة الناس.

وهذه المعاني والمفهومات والرموز الراقية يصعب على الوعي البشري التعامل معها وتمثلها من غير وسيط ثقافي ومعرفي، وهذا الوسيط يوفره التعليم في مراحله المختلفة. ونحن ـمع الأسفـ لم نقم إلى الآن بأي دراسة شاملة وذات قيمة حول تأثير الأمية وتدني درجة التعليم في ضعف الالتزام والإعراض عن المنهج الرباني الأقوم. لا ريب أن العلم لا يجعل المسلم دائمًا أفضل التزامًا، ولكن يجعله أكثر حساسية نحو مسائل التدين والارتقاء الخلقي والفكري، وتلك الحساسية بعيدة الأثر في جعل المرء أكثر استعدادًا لأن يستمسك بالحق، ويضحي من أجله، ولأن يحرص على أن يتخذ موقفًا واضحًا تجاه مسائل الحياة المختلفة. وهذا كله يدني المرء من التدين، ولا يبعده عنه.

وهذا ما نشاهده في الصحوة الإسلامية المباركة التي نتفيأ ظلالها؛ حيث إن معظم أبنائها من المثقفين وطلاب الجامعات وخريجيها.

٢ـ التقدم العلمي والتقني الذي يشهده العالم في كل لحظة أعطى للتعليم أهمية إضافية، حيث إن كل المعادلات تتجه لتصبَّ في صالح كل ما هو صناعي ومكتسب. وكما قلل التعليم والتدريب من أهمية القدرات العقلية الفطرية، فإن التراكم العلمي والتقني، والتقدم في مجال التنظيم والإدارة صار يقلل على نحو متزايد من أهمية الثروات الطبيعية، ومساحات الأراضي الشاسعة، والأنهار الغزيرة... في قدرة الأمم على حلّ مشكلاتها الداخلية، وقدرتها على المنافسة في الأسواق العالمية. يقول (ثورو) الاقتصادي الأمريكي المعروف: «في القرن الحادي والعشرين ستصبح مهارات قوة العمل والتعليم هي السلاح التنافسي الأول. ولن تعتمد الميزة التنافسية على ثروات الموارد الطبيعية؛ حيث إنه يُعتقد بوجه عام أن الصناعات الرئيسة السبع للعقود القادمة هي: الإلكترونيات الدقيقة، والتكنولوجيا الحيوية، وصناعة المواد الجديدة، والطيران المدني، والاتصالات، وأجهزة الإنسان الآلي المزودة بآلات القطع والتشكيل، والحاسبات الآلية، والبرامج. وهذه كلها صناعة المقدرة العقلية. وأي منها يمكن توطينه في أي مكان على وجه الأرض. والموقع الذي ستُقام فيه يتوقف على من يستطيع تنظيم المقدرة العقلية من أجل السيطرة عليها؛ ففي القرن القادم (الحالي) ستكون الميزات التنافسية من صنع الإنسان».

هذا كله يعني أن الأمم التي تعلِّم وتربي وتدرب بطريقة أفضل هي الأمم المرشحة لأن تتبوأ القمة. وهذا ما نشاهده اليوم في حياتنا، فمعظم الأمم ذات الدخل الاقتصادي المرتفع (أوروبا واليابان نموذجًا) لم يتحسن اقتصادها بسبب ما تملك من ثروات، وإنما بسبب توظيف العلم والمعرفة وتقدم الصناعة.

٣ـ كان الإنسان في الماضي كثيرًا ما يعاني من الشعور بالضعف تجاه مظاهر الطبيعة من عواصف وسيول وحر لافح وبرد قارس وجفاف وحيوانات مفترسة ووعورة طرق... والآن قد أمكن التغلب على معظم ذلك، وصار الإنسان يجد نفسه في مواجهة مشكلة أخرى، هي: كيف يتصرف بهذه الإمكانات العلمية والتقنية الهائلة التي أصبحت تحت يديه؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمتلك الحكمة في إدارة الحرية الواسعة التي باتت في حوزته؟

لقد صار من مسؤولياتنا الكبرى أن نسعى إلى ترويض أنفسنا وأُسَرِنا وطلابنا على استخدام المنتجات التقنية الحديثة فيما يعود علينا بالنفع؛ وذلك لأن كل منتجات الحضارة قابلة لأن تستخدم بطريقة ترقى بالإنسان، وتدفعه نحو الأمام؛ كما أنها قابلة لأن تستخدم على نحوٍ يجلب له الانحطاط. فالهاتف الجوال ـمثلاًـ يمكن أن يكون وسيلة جيدة للتواصل مع الأهل والأرحام وقضاء المصالح وتوفير جهد الانتقال... كما يمكن أن يستخدم وسيلة للثرثرة وتبادل النكات والطُّرف والتظاهر بالرقي وتنظيم الجرائم. وقُلْ مثل ذلك في الأدوية والأسلحة والسيارات وشبكات المعلومات... ومهمة البيوت والمدارس أن تملِّك الناشئة الأخلاقيات التي تجعلهم يشعرون بالمسؤولية تجاه الإمكانات والمنتجات التقنية. إن قدراتنا في ازدياد مطرد، وستقع مآس كثيرة إذا لم يصاحبها تحسن في الأخلاق وصلابة في الإرادة وزيادة في الوعي. وهذا كله لا يتوفر إلا عن طريق المزيد من التعلم، وهذا ما يمكن أن تقوم به المدارس على أحسن وجه إذا أدركت مسؤولياتها على النحو الصحيح.

ومن المؤسف أن كثيرين منا لم يدركوا بعد أن بين معطيات العلم واتجاهات الحضارة مفارقات ليست بالقليلة، وأن تراكم منتجات الحضارة لا يؤدي بالضرورة إلى تحسين نوعية الإنسان والارتقاء بالحياة، بل إن كل الدلائل تشير

إلى أن سلوك الناس يتشكل ليس على هدي العلم، وإنما على وقع الرغبات والشهوات وتأثيرات الدعاية التجارية. وهذا لا يقلل من دور العلم ولكن يحفزنا على تقديمه بطريقة معينة.

٤ـ إن البارئ ـجل وعلاـ كرَّم الإنسان، وسخر له ما في السماوات والأرض، ومنحه قدرات هائلة على النمو والتقدم، ولكن بما أن الدنيا دار ابتلاء، فإن إمكاناته هذه لا تبرز إلا من خلال المعاناة وتحمل المشاق التي نجدها في التعليم والتدريب والتنظيم. ومن غير هذه الأمور فإنه يمكن للإنسان أن يتدنى إلى مترلة لا يفقد فيها إنسانيته فحسب، وإنما يتحول إلى مؤذٍ ومخرِّب. إن الحيوان يولد مزودًا بخطوط غريزية تحدد مسالكه واتجاهاته وحدود رغباته؛ ولذا فإن لوحشيته حدودًا تنتهي عندها، فهو لا يصطاد مئة فريسة ليأكل واحدة منها كما يفعل الإنسان، حين يوقع صاحب مؤسسة الألوف من عماله في البؤس والعنت والضيق من أجل زيادة درجة رفاهيته، أو من أجل تكديس أموال لا يعرف ماذا يعمل بها!

إن الإنسان الحديث صار أشبه بمخلوق عجيب ينمو جسمه على نحو سريع لكن ضميره وخلقه وإرادته وقدرته على التحكم برغباته في حالة من التجمد وأحيانًا في حالة من التقهقر والتراجع، فهو ليس إنسانًا مشوهًا فحسب، ولكنه يوشك أن يصبح إنسانًا خارجَ السيطرة، وبذلك تصبح تصرفاته من غير معنى ولا هدف، بل عبارة عن أحاسيس متفجرة، وتغدو خبراته وكأنها من غير شكل ولا لون!

وتأمل معي بعمق قول الله ـجل وعلاـ: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [**الفرقان**: ٤٤]؛ ولذا فإن على مؤسساتنا العلمية بكل مراحلها أن تجعل من أهدافها الأساسية في التعليم تزويد الطلاب بالمزيد من الحكمة والفهم

والبصيرة بنوعية الاستجابات التي تصدر عنهم، وبالاستجابات التي ينبغي أن تصدر عنهم في مواجهة مغريات الحضارة وتحدياتها.

٥ـ فيما مضى كان ما هو مطلوب لحياة كريمة طيبة محدودًا سواء على مستوى الاستعداد الشخصي والمكتسب الثقافي، أم على مستوى السكن والأكل واللباس والعلاج. أضف إلى هذا أنه بسبب ضعف الحراك الاجتماعي وبطء التغيير والتطور، كانت طموحات الناس محدودة، والآمال التي تداعبهم بحدوث طفرات واسعة في أحوال معيشتهم كانت هي الأخرى ضئيلة جدًّا. وكثيرًا ما كانت تتحدد الأوضاع العامة التي سيحيا فيها الإنسان قبل ولادته من خلال المكانة التي تحتلها أسرته، ومن خلال الأشياء التي تملكها. أما الآن فقد تغير كل شيء على نحو جذري ولكن إحساس الناس بهذا التغير مختلف. والذي يصنع الفرق في أحاسيس الناس واستجاباتهم تجاه الفرص والتحديات هو العلم والعلم وحده. و(الشيفرة) المعقدة لبنية الحياة المعاصرة تُحلّ من خلال التثقف.

إن التعليم إن لم يوصل المتعلم إلى طريق الهداية أوجد لدى صاحبه استعدادًا للتساؤل عنها وقبولها. والتربية الصحيحة وإن كانت ليست مطالبة بتوفير فرص عمل للشباب، لكنها تؤهلهم للتلاؤم مع الفرص الموجودة والفوز بها.

مهما أطنبنا في توضيح ما تقدمه المدارس لأبنائنا فإننا لن نوفيها حقها. ومهما تحدثنا عن فضائل العلم والعلماء، فسوف نشعر بالتقصير، ويكفي في هذا قول الله ـتعالىـ: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩] ، وقوله: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١] .